الأجناس الأدبية والأدب المقارن

منذ كان نقاد الأدب اليوناني– وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو -لا ي ا زل النقاد، في الآداب المختلفة على مر العصور، ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناسا أدبية، أي قوالب عامة فنية، تختلف فيما بينها، لا على حسب مؤلفيها أو عصورها أو مكانها أو لغتها فحسب، ولكن كذلك على حسب بنيتها الفنية، وما تستلزمه من طابع عام، ومن صور تتعلق بالشخصيات الأدبية أو بالصياغة التعبيرية الجزئية التي لا ينبغي ألا تقوم إلا في ظل الوحدة الفنية . للجنس الأدبي، وهذا واضح كل الوضوح في القصة والمسرحية والشعر الغنائي، بوصفها أجناسا أدبية، يتوحد كل جنس منها على حسب خصائصه، مهما اختلفت اللغات والآداب والعصور التي ينتمي إليها .

أفلاطون أول من عرض لمشكلة الأنواع الأدبية ، حين ميز بين أنواع شعرية ثلاثة كبرى :الشعر المسرحي، أو المحاكاة، والشعر غير الحكائي أو الغنائي، وما هو خليط منهما وهو الملحمي، ثم اعتبر الشعر كله ضربا من المحاكاة، ولا يعرف أحد على وجه اليقين أسباب هذا التغيير، وكل ما يمكن تصوره، أو افت ا رضه وقبوله، أن بعض الزمن مر بين تحرير الفصلين، وفي هذه الفترة غير الفيلسوف الإغريقي أ ريه، واتجه مذهبه الجمالي نحو إلغاء الأنواع الأدبية، وبدأ يركز على عالمية الفن ووحدته.

أما أول تأمل عميق للأنواع الأدبية كان عند أرسطو في كتابه فن الشعر، وهو يمثل المصدر الرئيس للمادة حتى يومنا هذا، ويبني أرسطو تقسيمه للأنواع الأدبية على خصائص تتصل بالمحتوى، فيفرق بين الشعر الجاد والهزلي، أي بين المأساة والملهاة، أو تتصل بالشكل من إيقاع ووزن وقافية، وبنية خاصة في ترتيب أحداث العمل الفني، وحجم العمل، وطوله أو قصره، والزمن الذي يشغله، من هنا يجئ التمييز بين أسلوب القص المستخدم في الشعر الملحمي، والأسلوب المسرحي المستخدم في المأساة.

إن ظهور الأنواع الأدبية في تعاقب زمني دليل بين على أن ثمة تقليدا يفرض نفسه على المبدعين، حين يصبونه في قوالب موروثة، جاءتهم عبر الزمن، يملأونه كل مرة بسائل مختلف، فيتغير شكلها بتأثير المواد التي تصب فيها، فتصبح المسرحية أنواعا، والرواية أشكالا، والملحمة ضروبا، والوعاء واحد في كل الحالات، وهذه التقاليد قد تكون موروثة وتطورت مع الزمن بعوامل داخلية بحتة، أو بتأثيرا ت خارجية من آداب أخرى، وقد تكون مستعارة كلها من أمم مجاورة، ويحدث في حالات قليلة أن تكون من خلق الكاتب نفسه فيخلق العمل الأدبي شكله الخاص .

والحق أن الأجناس الأدبية لها طابع عام وأسس فنية بها يتوحد كل جنس أدبي في ذاته، ويتميز عما سواه، بحيث يفرض كل جنس أدبي نفسه بهذه الخصائص على كل كاتب يعالج فيه موضوعه، مهما كانت أصالته، ومهما بلغت مكانته من التجديد، ولا يستغني عن الإحاطة بهذه الخصائص الفنية كاتب، ولا ناقد من النقاد،- فكرة -الجنس الأدبي فكرة تنظيم منهجي لا يمكن أن تنفصل عن النقد من هنا، كان لزاما على كل مبدع أن يتخذ من هذه الأسس الأجناسية قالبا، مهما كان الموضوع الذي يعالجه،

واللغة التي يكتب فيها، وقد يكون للزمن دوره في تشكيله، فتتغير خصائصه الفنية قليلا، من عصر إلى عصر، ومن مذهب أدبي إلى آخر.

وفي تمييز الأجناس الأدبية ترعى خصائص مختلفة، فبعض هذه الخصائص يرجع إلى الشكل، من إيقاع ووزن وقافية، ومن ناحية بنية خاصة في ترتيب أحداث العمل الفني"الوحدة العضوية "ومن حجم هذا العمل وطوله أو قصره، كما في القصيدة والمسرحية، ثم القصة مثلا، ثم من الزمن الذي يشغله موضوع العمل الفني فهو يختلف عند القدماء بين الملحمة التي يمتد طولها أكثر مما قد تمتد المسرحية، وبعض هذه الخصائص يرجع إلى المضمون في صلته بالصياغة الفنية، فأشخاص المأساة عند أرسطو وعند الكلاسيكيين من الملوك والنبلاء والأبطال، على حين موضوع الملهاة الأشخاص العاديون، ثم إن الهجاء أو المهزلة تتجه إلى سواد الشعب.

والأجناس الأدبية عند الكلاسيكيين والقدماء محددة في كل ذلك تحديدا لا يختلط فيه بعضها ببعض، ولا يجوز بعضها على بعض، كان الناقد الكبير" برونتيير "صاحب تطور الأجناس، هو الذي أوحى متأثرا بنظريات" داروين "بأن الفنون الأدبية، أو قل الأجناس قابلة للارتقاء والازدهار والفناء، تماما كالأجناس الحيوانية، إذ حاول الناقد أن يدرس الأجناس الأدبية من ملحمة ومسرحية وقصة، كما تدرس الفصائل الحية، وأقتنع تمام الاقتناع بأن نظرية التطور جديرة بأن تطبق في الأدب وأنها ستؤدي إلى نتائج إيجابية ومجدية.

درس برونتيير العلاقات القائمة بين مختلف الأجناس الأدبية من النواحي التاريخية والفنية والعلمية، وهو يقصد بالعلاقات التاريخية، بيان ما إذا كانت الأجناس تظهر إلى الوجود بعضها إثر البعض الآخر، نتيجة الصدفة أو نتيجة توالدها كما يحدث ذلك في الأجناس الحيوانية، ويقصد بالعلاقات الفنية، الصلات التي تقوم بين القوالب الفنية المختلفة، التي تتجلى بواسطتها الأجناس، وفضل الأجناس اللاحقة على السابقة، فيرى مثلا أن المسرحية أرقى نوعا من الملحمة، وأن القصة بمعناها الحديث أرقى من الحكاية الشعبية، ويريد بالعلاقات العلمية القوانين التي تتحكم في علاقات هذه الأجناس المشتركة، والتي تتحكم في كل منها على حدة وجودا ونشوءا وتطو را واندثارا.

وقد قدم" بونتيير "هو ومن خلفه للمقارنين منهجية خاصة بدراسة الأجناس الأدبية تتلخص في النقاط الآتية:

- على المقارن أن يحدد الجنس الأدبي الذي يدرسه وخاصة إذا كان هذا يتبع قواعد فنية صارمة، وقد يسهل تحديده كلما اتضحت قواعده الفنية.
- على المقارن أن يحدد درجة تقيد الكاتب أو الشاعر بالجنس الأدبي الذي يعالجه، فيبين إذا كان المؤلف يلتزم بمذهب أدبي بعينه، أو إذا كان ح ا ر في اختياره، وعليه أن يظهر مدى تصرف كاتبه في قواعد المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها، ويعالج الأسباب التي جعلته يحيد عن النموذج الذي أ ا رد إتباعه.
- على المقارن أن يقيم الأدلة على تأثر المؤلف بالجنس الأدبي الذي عالجه، وقد يكون ذلك سهل المنال إذا كان المؤلف يحاكي من سبقه من أبناء جلدته، أو إذا صرح بأنه يقلد الأغ ا رب، كما فعل الشاعر" فكتور هوغو "الذي أعلن على الملأ أنه يحاكي في مس رحه شكسبير.

من هنا، كان من الضروري الإشارة إلى الصلة القوية، أو قل العضوية التي تجمع بين الأجناس الأدبية، إلى حد يذهب فيه بعض النقاد وعلماء الجمال، إلى عدم التمييز بينها، بحكم كونها جميعا فنا أدبيا، بغض النظر عن تقسيمه إلى فروع وأجناس، على نحو ما ذهب إليه الناقد" كروتشه "حين جعل التمييز بين الأجناس الأدبية، من التمييزات الخداعة في الساحة الفنية وإن كانت جهود برونتيير قد أثمرت في أواخر القرن التاسع عشر، فإنه يصعب علينا في الوقت الحاضر تحديد الجنس، إذ برزت

مكانه كلمة "تقنية" ، فلا يتقييد القصصي والشاعر والأديب المسرحي بنظريات الجنس وأعرافه، بل يخضعون لقواعد مبهمة سوف تسيطر عليها بدورها عملية التقعيد، ولذا سوف تنبعث قضايا الأجناس من جديد، وسوف تطرح على ضوء التقنية مشاكل خاصة بها، لقد تغيرت في العصر الحديث النظرة إلى هذه الأجناس الأدبية، فأصبحت دراستها ذات طابع وصفي، فليست هي بأوامر فنية مرسومة لدى المؤلفين، ولكنها شروح وتعليل لا يحددان العمل الفني تحديدا تحكميا، ولا يحصرانه تلقائيا، وفي هذه النظرة الوصفية العلمية، يمكن أن يختلط جنس أدبي بجنس أدبي آخر ليؤلفا جنسا جديدا، كما في المأساة اللاهية، ويظل الباب على مصرعيه لخلق أجناس أدبية جديدة، فالأجناس تمثل مجموعة من الاختراعات الفنية الجمالية، يكون الكاتب على بينة منها، ولكنه قد يطوعها لأدبه أو يزيد فيها.